الشيطان فى الشعر الحديث

لاامتراء فى أن عقل الإنسان من أعجب عجائب الكون وأروع مبتكراته ، ومع تقدم العلم واستفاضة المعرفة لا يزال البحث عن طبيعته من المسائل المعضلة والمشكلات المستعصية ، ولم يهتد بعد إلى حقيقته ولم يعرف مصدره ، ولكن هذا العقل الغريب المجهول المصادر والموارد والغامض الطبيعة قد برز من نواحيه ناقد للكون وآثاره طلعة كثير التساؤل بعيد الغوص ، وكثيراً ما يشد طرفه ويتطاول إلى مقام خالقه كالولد العاق الذى يعصى أباه ويسلقه بلسانه ويستطيل عليه ، فمن أين استمد العقل هذه القدرة على الفصل فى القضايا وإصدار الأحكام ؟ وهل عالج الحياة فى عوالم أخرى واسعة الرحاب حتى تسوغ له الموازنة بينها وبين عالمنا الصغير المحدود ؟

ومن الواضح أن هذا العقل جزء من الكل فكيف أتيح لهذا الجزء أن يتناول الكل بالنقد والزراية والتسفيه ؟ وهل أوتى العقل علماً خفيًّا وألهم حكمة تخوله هذا الحق ؟ .

وهل هناك قوة يستشهدها العقل حينما يرفض الحياة ويتنكر للوجود ؟ وهل هذه القوة مناوئة لقوة خالق السموات والأرض وفاطر الأكوان بأسرها ؟

كثير من المفكرين يرون أن الوجود والكمال ضدان لا يلتقيان ، والوجود الكامل كلمة جوفاء خالية من المعنى وخيال لا سبيل إلى تحقيقه ، وعالم الوجود هو عالم النقص والتناقض والخلاف والتنافر ، و «ليبنتز» رأس الفلاسفة المتفائلين ، لم يستطع أن يقول أكثر من أن هذه الدنيا خير دنيا ممكنة ، ولكن

هل هذا يرضى النفس ويقنع نوازع القلب ؟ إن خير المستطاع وجهد الطاقة والإمكان قد يقصر أشد تقصير على أن يفى بحاجات النفس ويلبى مطالب الروح ! ويرى بعض الفلاسفة أن المطلق – أى الكل فى شموله وإحاطته – وما يندرج تحته ويطوى فى ثناياه كامل لا يعتوره نقص ولا يشوبه عيب ولكن العيون لا تبصر والقلوب لا تعى .

وقد كان « هيجل » فى طليعة الفلاسفة القائلين بذلك ، ولكننا عندما نعلم أنه كان يرى أن « المطلق » قد تحقق فى حكومة بروسيا المعاصرة له والتى كان يلقى محاضراته فى ظلال رعايتها يبدأ الشك يساورنا فى كمال هذا المطلق ، ونميل إلى تصديق قريعه « شوبنهاور » الذى كان يرى أن النقص كامن فى تركيب الدنيا ملتصق بطبيعتها ولا حيلة لنا فى ذلك . أمثال هذه الأفكار أوحت فى بعض الأحايين الاعتقاد بأن نظام الدنيا نظام جائر ، وأن الحياة أكذوبة ، وأن الخير والصلاح طريدان مشردان فى هذا الوجود تلاحقهما النقمة ويصب عليهما العذاب ، وقد قاوم هذه العقيدة كبار الفلاسفة الأخلاقيين وتصدوا لتفنيدها ، لأنهم كانوا يؤمنون بوجود نظام مقدس للدنيا وغاية حكيمة للوجود ، وبأن الخير منسجم مع هذا النظام وأن الشر منافر له غير متجاوب معه .

ولقد عرف بعض المفكرين الشيطان بأنه الروح الذى يعمل ضد القوى الكونية ويحاول أن يفسد صنيعها ويهدم بناءها وأنه المثابر الذى يتحدى إرادة الجميع ويقاوم رغباتهم ويخرج على إجماعهم . والفلاسفة القدماء كانوا يتصورون الشر على هذا النمط ، ويتصورون الخير على أنه طاعة القوانين والخضوع للعرف المألوف والعادات المتبعة ، فالصلاح فى رأيهم قرين الولاء وصنو الخضوع والخطيئة هى الثورة والتمرد .

وفى الأساطير اليونانية قصة بروميثياس الثائر المتحدى لقوى الجائرة المسيطرة

على الدنيا من أجل بنى الإنسان ، وسبب أمثال هذه الثورة الحكم السيئ الذى يولد النقمة ويقوى عوامل الحقد والبغضاء فى نفوس الأفراد ، وسببها فى بعض الأوقات ضرب من المثالية السامية الموكلة بالقمم العالية والمحلقة فى أجواء أثيرية لا تستطيع الحياة الواقعية تحقيقها .

والشعراء — بطبيعة إحساساتهم المرهفة ونفوسهم المتطلعة وآمالهم المترامية — أميل إلى الثورة على الكون وأكثر تعرضاً لجوانب الحياة المحزنة ونواحيها المظلمة وصدماتها المؤلمة ، حتى قال أحد النقاد : « لا شىء أقل شاعرية من التفاؤل » وفى الخرافات اليونانية أن زوس خلق الآلهة من ابتساماته ، وخلق البشر من دموعه . فالحزن والثورة والملل أقرب إلى الشعر وأمس به . ولقد عبر عن ذلك الشاعر شلى فى قوله : « إن أعذب ألحاننا وأحلى أغانينا هى تلك الألحان والأغانى التى نعبر بها عن عميق حزننا وبالغ أساتا » . ولو تتبعنا أثر التطلع إلى عوالم أخرى غير هذا العالم والآمال المشرئبة الخائبة ، واحتقار الواقع فى الشعر الحديث لطال بنا الحديث . وليس غرضى أن أتتبع نغمة الحزن فى أشعار شعراء القرن التاسع عشر وأقتفى أثر النقمة على الوجود والتمرد على الحظ فى دواوينهم ، وإذا كانت فكرة الإنسان عن الله هى مقياس إيمانه وسمة حياته الروحية فلا نزاع فى أن تصور الشاعر للشيطان يبين موقفه حيال مشكلة الشر وأسلوبه فى نقد الحياة . وقد تناول مسألة الشيطان فى الشعر طائفة كبيرة من كبار الشعراء فى طليعتهم « ملتون » فى الفردوس المفقود ، و « بيرون » فى رواية قايين ، و « جيتى » فى رواية فاوست ، وسأقصر الحديث هنا على رواية قايين لأنها فى اعتقادى أكثر حرية ووضوحاً وأقوى ثورة ، وإن كان ينقصها جلال الفردوس المفقود وعمق فاوست .

فى رواية قايين يمثل لنا بيرون آدم وحواء بعد خروجهما من الجنة وقد ندما

على ما كان منهما ورضيا قضاء ربهما وخشعا وأخذا يعبدانه فى ضراعة وخضوع ، وأبناءهما مثلهما فى الخشوع وخشية الرب حاشا قايين ، فى أول صلاة لله عند تقديم القربان الذى يعبر عن ولائهم جميعاً يشوب الحفلة صمت قايين المتحدى ووجومة المريب ، ويرفض فى أنفة السجود لله الذى حرم على الإنسان المعرفة وقدر له ولذريته الموت ، وتبدأ الشكوك تعتلج فى نفسه فيقول : « أهكذا الحياة عناء وكدح ! ولم أكدح وأكابد العناء ؟ ! (ألأن) أبى لم يستطع الاحتفاظ بمكانه فى الجنة ؟ لم أكن حين ذاك قد ولدت ولم أرد أن أولد ولم ترقنى هذه الحالة التى ساقنى إليها هذا الميلاد ، ولماذا استسلم للحياة وانقاد للمرأة ؟ ولماذا جر عليه الاستسلام الشقاء ؟ وماذا كان فى ذلك ؟ لقد كانت الشجرة مغروسة هناك فلماذا حرمت عليه ؟ وإذا كانت قد حرمت فلماذا جىء به إلى جانبها حيث ربت وترعرعت فى وسط الجنة ؟ ولماذا لا نتلقى إلا جواباً واحداً عن شتى الأسئلة وهو أن ذلك هو إرادته وأنه رحيم ؟ وكيف أعرف ذلك ؟ أمن أجل أنه قرى يكون رحيماً ؟ ! إنى أحكم على أعماله بثمراتها ، وهى ثمرات مرة ، وهأنذا أتجرع مرارتها لذنب لم أجنه ! » .

وهذه هى أول مناجاة له ، وهى تبين روح الرواية واتجاهها ، والرواية معركة حامية بين الشك واليقين ، ولكن للشك فيها القدح المعلى والنصيب الأوفر ، فقد شك قايين فى أن الله رحيم ولكن يظهر بعد ذلك الشيطان ويؤكد له ذلك ، وينفى عنه الشك فيقول عن الله : « هو عظيم حقًّا ولكنه فى عظمته وسموقه ليس أسعد منا حالاً ولا أنعم بالاً ! إن الخير لا ينتج شرًّا وماذا صنع غير ذلك ؟ ولكن دعه متربعاً على عرشه الواسع المترامى تحفه العزلة ويخلق العوالم ليخف حمل الأبدية على وجوده الضخم الهائل ووحدته التى لا شريك له فيها . ودعه يكدس الأجرام جرماً على جرم فهو مستبد متفرد ، ألا يستطيع

تحطيم نفسه وسحق كيانه ! إن ذلك هو خير نعمة يسديها ! ولكن دعه مبسوط الظل نافذ الأمر يكرر نفسه فى الشقاء ويجدد خلقه ، والناس والملائكة يتقاسمان الشقاء ، وهذا الشقاء الشامل يلطف جراحاتنا ويهون آلامنا ، ولكنه فى عزلته البائسة قلق مكب على الخلق والتجديد » .

ويقره الشيطان على إنكاره ويزيد ثورته اشتعالاً . وعندما يسمع قابين حديث الشيطان يقول له : « إنك تتحدث إلىَّ عن أشياء طالما جالت بنفسى وخطرت ببالى » ثم يسترسل قائلاً : « إنى أشعر بعبء العمل اليومى وشدة وطأة الهم الملازم لى . وأدير الطرف حولى فيبدو لى أنى لا شىء فى الوجود ، على حين تجيش بنفسى أفكار كأنما تحاول بسط سلطانها على الأشياء ، وقد كنت أحسب فى وحدتى أن الحزن نصيبى ، ولقد لان جانب أبى وريض جماحه ، ونسيت أمى العقل الذى أظلها إلى المعرفة وعرضها للعنة الله وغضبه ، ولم أصادف من قبل من يقاسمنى الشقاء ويرثى لبلواى » .

فهل تنجلى غمرة هذا الشك القوى ويعلن قابين تحديه الصريح وانضمامه إلى حزب الشيطان وسيره تحت لوائه ؟ إن الشيطان يعتمد على كبريائه التى لاتستذل ولاتنحنى صعدته ولا تخمد جذوته ويتعزى بحبه للحق وإيثاره الحق على السعادة والنعيم ، ويوحى الشيطان إلى قابين كراهته الخضوع فيقول : « إنى أرفض السعادة التى تسومنى الخسف وتحمل كل من يلوذ بى الذل والهوان » .

ولكن « عادة » – زوجة قابين وشقيقته – ترهب الشيطان ولا تطمئن إليه وتقول له : « إنى أرى على محياك علائم الهم وآيات الشقاء فلا تجعلنا مثلك محزونين ، وإنى سأذرف الدمع من أجلك » .

فيجادلها الشيطان قائلاً : « لو تعلمين أى بحار من الدموع الغزار ستراق ويجرى طوفانها ، وكم من الناس الذين سيخرجون من ذريتك سيغص بهم

الجحيم» ولكن «عادة» بعيدة المنال عليه ، فلا يؤثر فى نفسها حديثه ، فيزين لقابين رفض الخضوع وإعلان الثورة .

ويدرك الشيطان أن سبب تردد قابين فى إعلان عصيانه هو عجزه عن احتقار ما يحب وما يكره لضيق أفقه وقلة درايته وجهله حقارة عالمه وضؤولة شأنه فيأخذ على نفسه مهمة تلقينه دروس الازدراء واستصغار الأشياء ، وينتقل به فى الفضاء غير المحدود تنقل الضياء فى الأرجاء حتى تختفى عن ناظره الجثة وتصير الأرض كالهباء . ويرى عوالم جديدة ودنى مجهولة بها جنات وحيات وأناس ، ويطوف به حتى يقوى شعوره بعظم المجهول وضخامة أمره ، ثم تدور بينهما هذه المحاورة :

الشيطان : والآن أعيدك إلى عالمك وستتكاثر بك ذرية آدم وستأكل وتشرب وتجاهد وتكابد وترتعد وتضحك وتبكى وتنام ثم تموت فى النهاية !

قابين : ولأى غاية قد رأيت الأشياء التى كشفت لى عنها وأطلعتنى عليها ؟

الشيطان : ألم تطلب المعرفة ؟ ألم أعلمك بما أطلعتك عليه أن تعرف نفسك ؟

قابين : وا أسفاه يتراءى لى أنى لا شىء .

ولكن الواقع أن مأساة قابين ليست فى هذا الشعور بالنقص وهوان الأمر ولا شيئية النفس وإنما هى فى شعوره بالتناقض بين ترامى أفكاره وبعد طموحه والإحساس بلا شيئية نفسه . وهو يصارح الشيطان بذلك فى قوله : «لقد أريتنى أشياء من وراء طاقتى ومن فوق مداركى ولكنها أيسر من طموحات نفسى وأهون من تصورات فكرى»

ويحاول قابين أن يلعب دور الشيطان ولكنه يعجز عن ذلك ، وفى ثورة هوجاء يخضب الأرض بدماء أخيه ويرتكب أول جريمة فى تاريخ الإنسان . وقد

بدأ قايين ينقم ويتألم لوجود الشر الذى يشوب الحياة ويغشى الأشياء ، ثم أخذ يشتد شكه ويستفحل خطره حتى أصبح يشك فى وجود الخير . ورواية قايين تبين فى أوضح صورة أن بيرون من أنصار مدرسة الشيطان الذى يأبى الخضوع ويؤثر المعرفة على السعادة وراحة البال . وخلاصة حكمته أن على الإنسان أن يفكر ويتأمل ويصبر لما يلحقه فى سبيل ذلك من مرير الألم ، وعارم الحزن ، والإنسان لا يرتفع إلى ذروة الكرامة الإنسانية الحزينة إلا بالبحث عن المعرفة والجرى وراء الحق .